شهر رمضان بين المناسبة والالتزام(*)

أتراه شهراً يطل هلاله على الأكوان، منظوراً إليه بعدد أيامه ولياليه، أم أن هنالك شيئاً وراء الليالي والأيام، يرتد إلى عمق المعاني التي يحملها شهر رمضان وذكرياته الضاربة في أعماق تاريخ الدعوة بناءً وجهاداً وأصالةً؟ لن تعوزنا وسائل المعرفة كي نجنح إلى هذا الذي حفلت به مصادر معرفتنا الأصيلة من فضائل رمضان، وما أوسع له التاريخ في ميدان الصراع بين الحق والباطل، على خط بدأ بنزول الوحي وانتهى بفتح مكة حيث جاء نصر الله والفتح، مروراً بمعركة بدر التي كانت فرقاناً بين التوحيد والكفر، وفيصلاً بين الحق والباطل. ولا تسل عن غرة جبينه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

ولكن الذي يوجبه صدق الإيمان بالكتاب الذي فرض صيامه، والحرص على أن تكون الأمة على مستوى المعاني التي يحملها وذكرياته التي أضاءت جنبات التاريخ.. أن نبحث بشجاعة الرجال، وصدق الأمناء عن الحقيقة، عن الطريق التي تحملنا إلى حيث يكون وجودنا، امتداداً لوجود أولئك الذين كانت قلوبهم أرض تلك المعاني الطيبة، ونفوسهم أمثلة تحتذى في بناء التاريخ وقيادة معركة الصراع بصدق وتفان في سبيل الله.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة الرابعة عشرة، رمضان ١٣٩٣هـ، تشرين الأول ١٩٧٣م.

إنه لَبَوْنٌ شاسع بين الذين صنعوا المناسبة وتاريخها، وبين الذين يكون حظهم من رمضان صلة المناسبة العابرة حين يطل هلال أو تشرق شمس! إن علينا أن نعمل على إحداث النقلة من المناسبة إلى الالتزام بمدلولات المناسبة، كيما تصبح الصلة برمضان صلة التزام وتربية وجهاد، لا صلة مناسبة يحتفي بها المسلمون وهم على السطح دون غوص إلى الأعماق، وتحريك للنفوس والقلوب، وكيما يكون رمضان وقوداً من وقود عملية التغيير التي لابد منها في ظل قول الله تباركت أسماؤه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾. ذلك بأن المسلمين ـ على وجه العموم ـ غيَّروا ما بأنفسهم فغيَّر الله ما بهم من التمكين وثمراته؛ لذا ما بدٌّ من إصلاح الخلل حتى يعود الله عليهم بنعمه وفضله من جديد.

إن من حق رمضان على هذه الأمة أن تتخذ منه عاملاً أساسياً في عودتها إلى صدق الانتماء إلى ما رضيه الله لها عقيدة وعبادة وشريعة، ورغبة صادقة في الجهاد، وحرصاً على أن تكون النفس منقادة لأوامر الله، ترضى ما رضي لها ربها، وتكره ما كرهه لها، تستعلي على مطالب الجسم اليومية والشهوات العارضة والرغبات، وتصل ما بينها وبين الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وذلك من طريق الاحتفاء بالقرآن الذي بدأ نزوله في رمضان، تلاوة خاشعة تصحبها مراقبة الله والتطلع إلى مرضاته والقرب منه، وتدبراً يحمل إلى ساحة العمل بمضمون ما يتلى، والتأسي برجال القاعدة الصلبة التي بناها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتي كان كل واحد من أفرادها يقرأ القرآن خاشعاً متدبراً تزينه الإنابة الواعية، والخضوع

لجبار السماوات والأرض، ويحمل مسألة العلم للعمل والجهاد، ويجعل من التأسي برسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنوان حياة ومحور حركة، حتى صدق فيهم أنهم رهبانٌ في الليل فرسانٌ في النهار، وأنهم يَقلُّون عند الطمع ويكثرون عند الفزع.

وما مواقفهم في بدر، إيماناً وشجاعة وبطولات علَّمت الدنيا معاني الجهاد والاستشهاد، وما وقائعهم يوم الفتح من صدق الالتزام والطاعة الأمينة الصادقة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حتى كانوا جنود الفتح، كما كان أهل بدر حراس عقيدة التوحيد والذود عنها... ما ذلك كله إلا انعكاس لصلتهم بالقرآن وحبهم الصادق لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

إن المؤمن ليرقب بلهفة ما بعدها لهفة تلك اللحظات التي تبدأ فيها الأمة استئناف الطريق، وتحقيق الانتماء إلى ما به أمسكت بزمام الدنيا حقبة طويلة من الزمن، فكان لها شخصيتها المتميزة، وهويتها القيادية الواضحة.

ويا لله كم نسعد برمضان حين نجعل منه دورة زمنية خيرة! تقودنا بما تفيض به من النفحات، وبما تحمل من المعاني والذكريات إلى تحقيق ذاتنا، والعودة إلى منابعنا الأصيلة، كيما نكون على قدم أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل أُسُوداً في النهار، وعندها تخلص عبادتنا لله فتكون إيماناً واحتساباً، ويمسح عن قلوب الكثيرين يشبه من التوجه إلى الأنداد والأضداد، فلا يرهبنا عدو الله وعدونا، ويعود إلينا ما اغتصب ذلك العدو الماكر الذي يقتنص الفرص ويتفاقم ورمه وشحمه على حساب ضعفنا

وانحسار سلطان القرآن عن نفوسنا، وتجافينا عن العبودية لله، حتى كاد الكثير منا يقع في شرك ألوان الوثنية والأوثان، ونزع الله من صدور أعدائنا المهابة منا، وصرنا إلى حيث حب الدنيا وكراهية الموت!!

ألا وإن لشهر رمضان كلمة لابد أن تعيها هذه الأمة، وإن له نوراً يجدر أن تستضيء به النفوس والقلوب، وإن له منهجاً في التربية والتزكية والإعداد، لابد أن نتقبله راضين خاشعين عازمين. والله المسؤول أن يحرك القلوب لتكون عند الوفاء لرمضان ومعاني رمضان وذكريات رمضان، في وقت لم يبق إلا أن تولي وجهها بإيمان ووعي إلى الإسلام من جديد، حيث الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والعلم النافع، وإعداد القوة لمجاهدة العدو، وبناء الحياة على خير الأسس الحضارية والثقافية الأصيلة، وتكريم الإنسان، وبناء الفرد والجماعة على حراسة ما به يصلح أمر الفرد والجماعة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والله هو القادر على أن يجمع القلوب على كلمته، ويوحد النفوس على محبته، كيما تكون أهلاً لنفحات رمضان القدسية، وما يكون فيه من العطاء الإلهي، في ظل قول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾. وهو ـ سبحانه ـ المحمود على كل حال.

جهاد .. وحج (*)

عندما تتفجر طاقات الأمة تحت مطارق الأحداث، يعلن منعطف جديد إعلانه في حياتها، فتحسّ إحساساً صادقاً بنبع الأصالة يفيض من هنا وهناك، وترى الحقيقة مجردة عن الغبش والصوارف، تلك الحقيقة التي تنادي بالجمع بين الأصالة والتجديد، فليس كل قديم يستنكر لأنه قديم، ولو حصل ذلك لكان لوناً من العقوق القاتل والجناية البلهاء، وليس كل جديد أهلاً لأنْ يُستشرف إليه وتهفو إليه النفس لأنه جديد، ولو حصل ذلك لكان نوعاً من السطحية وضيق الأفق.

والأمر الذي يفرض نفسه في كيان هذه الأمة تاريخاً وثقافة ومنهج سلوك، أن قديمها منابع تتفجر بالحركة والطاقة؛ لأنها من معين المنهج الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن صورتها الحركية في الحياة يجب أن تكون أداءً للرسالة التي حملها إليها ذلك المنهج، وهي على موعد دائماً مع المرحلة الطويلة الشاقة بين الواقع والآمال، وحين تشدها إلى المنهج الرباني أواصر الصدق والعزيمة: لا تلبث الآمال أن تكون واقعاً، ولا يلبث واقع اليوم أن يكون حلقة عطاء في مصير الغد. المهم أن الأمة تكون قادرة بهذا على مناجزة الأحداث دونما يأس أو قنوط، وهي حين تناجزها، تناجزها عن عقيدة ومنهج وتصميم، فلا مكان للعبث، ولا

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة، شوال، ذو القعدة ١٣٩٣هـ، تشرين الثاني، كانون الأول ١٩٧٣م.

مستقر للانحسار، وأيما فرد من أفراد هذه الأمة خالطت قلبه بشاشة الواجب كان سلوكه عنواناً سامقاً في محاضن التاريخ، وإعلاناً عن صدق رسالة الأمة، وكفاءتها في مواجهة الطريق الطويل الصعب لتحقيق آمالها، والنفاذ إليها من خلال الصبر والمصابرة، وارتباط القلوب بالله.

إنها ربانية هذا الإسلام التي لا تترك الحبل على الغارب، وتلقي بمقادير الأمة على طريق الضياع؛ لأنها عن الله وفي سبيل الله.

من أجل ذلك كان التكامل واضحاً في بناء أحكام الشريعة، وما وضع الله لعباده من منهج قرآني في السلوك وارتباط ذلك كله بآصرة العقيدة؛ لأنها هي الباعث والمنطلق، وإنك واجد صورة من صور ذلك فيما يبدو من النسب الكريم بين الجهاد وحج بيت الله الحرام، وإذا كنا على أبواب المحتوى الزمني للحج، بعد أن أكرمنا الله بما كان من دروس في حرب رمضان، إن من الخير أن نفتح البصائر على شيء من الروابط بين الفريضتين العظيمتين، على ما بينهما من أبعاد وفروق، تتعلق بالغاية التي كانت من أجلها الشرعة، كما أرادها الله وبيّنها رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فلئن كان الجهاد بذلاً وصدقاً في المواطن، وإقداماً على بذل المال والنفس في سبيل الله من أجل دفع الظلم، وإحقاق الحق، وإنجاز رسالة الأمة، إن الحج بما فيه من تدريب النفس على ترك المألوف من العادة والشهوة، والالتزام المطلق في أيام الإحرام، والتجرد الكامل لله عز وجل قلباً وقالباً، وإراقة الدم في سبيل الله على طريق خطها إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما لم

يبخل بالإقدام على التضحية بولده امتثالاً لأمر الله، وبما فيه من العمل على أن يكون القلب دائماً مع الله توجيهاً إليه وحده، فهو المعبود، وهو المستعان، وهو الذي تحط الأوزار في رحاب بيته بالتوبة والإنابة، وهو الذي تراق الدموع سخية عند الابتهال إليه والسجود بين يديه، . . إن الحج بما يشتمل عليه من ذلك كله: لَيَقومُ بدور تعبئة نفسية تؤدي دورها في حياة المجاهد، حين تغني قلبه بمعنى الجهاد في سبيل الله، أنبل غاية، وصبراً على مقارعة العدو، وصدقاً في المواطن واستشعاراً صادقاً لمعاني العقيدة، التي أبسط مقضياتها: أن المسلم قد باع نفسه وماله لله، وأن الله قد وعده الجنة، والله منجز ما وعد إن نحن صدقناه، ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ**﴾ وإن ضريبة الإيمان ابتلاء وتمحيص، وطريق الجنة مزروعة بالمكاره ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ وهكذا يفترض أن تكون الأمة دائماً على موعد مع التذكر إن مسها طائف من الشيطان، ومع اليقظة إن أصابتها سنة من الغفلة، ولكم تكون الضارة نافعة حين تستيقظ الأمة بوعي على وقع الأحداث، فتبرز الطاقات الكامنة، ويتحول الشراع، ويستأنف الطريق، ويرى كل فرد من أبنائها أن شرعة الله واحدة، وأن القبلة واحدة، وأن الأحكام متكاملة مترابطة.

ولحجاج بيت الله أن يغترفوا من معين الخير، ويبصروا ما بين الحج والجهاد من أواصر، فيكون لهم ولمن وراءهم من المسلمين ذكرى تنفع

المؤمنين الذين مسهم القرح من يهود وحلفاء يهود، بل يدركون أن كل واحدة من شعائر الإسلام فيها من الإعداد النفسي للجهاد ما الله به عليم، وعندما نصدق في بناء الجيل من أجل أن نحمل الراية من جديد، لابد أن نعيد إليه ما به تصدق نسبته إلى أمته في عقيدتها وأصالتها، وعناصر البناء والتكوين فيها.

أرى أن بين أيام الحج بما فيها؛ التلبية والتكبير، والعبودية الصادقة لله، والانصراف الكلي عن كل ما يعكر صفو التوجه إليه، ثم بما يتسم به المؤمنون من ظاهرة المساواة وإزالة الفوارق؛ فالكل عباده، والكل لآدم وآدم من تراب.. وإن بين هذه الأيام وأيام رمضان شهر الصبر والجهاد، حيث المعارك المظفرة، والإنابة إلى الله لنسباً صادقاً أيضاً نرجو أن يكون في حسبان هذه الأمة، كيما تكون دروس رمضان القريب عنواناً جديداً على تأكيد الحقيقة التي كانت صمام الأمان عبر التاريخ، وهي أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها. إن علينا أن نعد العدة بشتى وجوهها وألوانها ولكن لابد أن تظل خطانا إلى القتال، تلك الأفكار التي كانت تراود أولئك الذين طهروا الأرض من رجس يهود في معارك خيبر وبني قريظة وبني النضير، ثم ما كان من إجلائهم عن الجزيرة أيام عمر على هدي تلك الأفكار.

وفي ضوء لمعان تلك السيوف، وفي ظل مثار النقع الذي انعقد فوق رؤوس الغر الميامين، لسوف تخوض الأمة معركة الحق مع الباطل وتنزع هذا الحق بأيدي أبنائها ولا تشكو الظلم للظالمين، فليست النائحة كالثكلى، ولا يجنى من القتاد إلا الشوك!!!

إن الغاية التي تحرك السواعد هي رفع الظلم والانتصار للحق والكرامة.

وما أحلى أن يكون ذلك في سبيل الله، ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾. والحمد لله رب العالمين.

وما أعظم وأكرم أن نستذكر الحقيقة الأولية في هذا، تلك الحقيقة التي سداها ولحمتها أن خيرة الله هي الخير، فهو الذي يعلم، ونحن البشر ليس لنا هذا العلم. ذلكم قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

أجل: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

وقفة .. للتواصي (*)

على عتبة السنة الخامسة من رحلة «مجلة حضارة الإسلام» المباركة عبر الكلمة المؤمنة الهادفة، والفكرة التي يراد لها ـ بعونه سبحانه ـ أن تسهم في البناء وتوضح الرؤية، نود أن نراجع مع الإخوة القراء رصيد الكلمة المؤمنة في كيان هذه الأمة، لنقف وقفة التواصي بالحق والتواصي بالصبر، كيما نتبيَّنَ مواقع أقدامنا من الطريق الطويل الذي يفترض أن يكون دائماً على هدي ميراث النبوة، الذي أكرم الله به أمتنا المحمدية، وأرسى بهداه قواعد خيريتها في العالمين.

وحين نملك الشجاعة المستعلية على التغفل والاستخذاء، نعترف أن ذلكم هو الامتحان.. امتحان صدق الانتماء إلى هذه الأمة بكل ما تعنيه هذه الكلمة، في وقت شوّهت فيه المعالم وتلوّن فيه الانتماء.. فمن هنا.. إلى هناك.. إلى هنالك.. والليالي مثقلات مثقلات. وإنما نقول: «صدق الانتماء»؛ لأن ذلك يعني الحرص كل الحرص على الأصالة بعمقها ومداها، والذاتية بكل رؤاها وميادينها. والأشحة في الخير هم الذين يعدلون عن ذلك، ويتوجهون شطر النقيض من الوجهة، راضين بالدنية من الأمر، مؤثرين الحضيض على القمة، وما هكذا أراد لهم الإسلام.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد العاشر، السنة الرابعة عشرة، ذو الحجة ١٣٩٣هـ، تكانون الثاني، شباط ١٩٧٤م.

من هنا تأتي ضرورة وقفات التواصي التي تمثل مراجعة الرصيد لما مضى، ورسم المنهج لما يأتي، والحكم على الواقع من خلال التصور السليم لمنطلقات الأحداث وأبعادها، وذلك ما يفرض مزيداً من النقد الذاتي البناء، وذلك سمة أصحاب الرسالة، خصوصاً أن الوقائع الصارخة تغمر عالمنا الإسلامي هنا وهناك، وأعداء هذه الأمة لها بالمرصاد، مما يحفر في تاريخنا ندوباً، وصوراً ينبغي أن نكون لها بالحسبان.

نقول هذا غير ناسين أن الانهزام النفسي ضارب بجرانه على قلوب كثير من ذوي الدعاوى والعناوين.. وحسبك أن تذكر أن أعداءنا الذين لا يرقبون بالإنسانية إلاً ولا ذمة، والذين يمثلون دائماً دور الأسياد في هذا العصر!! عندما برعوا في ما هو سمة هذا القرن من العلوم التقنية، أصبحوا في نظر كثيرين منا موضع الثقة في كل شيء، فانحدرنا نأخذ عنهم حتى سلَّم القيم - وهم من ذلك براء - ومقاييس الأمور، بل والحكم على عقيدتنا ولغتنا وتاريخنا، حتى أصبحوا كأنهم مصدر العطاء الذي لا عطاء وراءه، ناهيك عن اتخاذهم بطانة والاستمساك بآرائهم في القضايا التي يسمونها مشكلات، والمسائل التي يعتبرونها ثغرات، ومكامن القوة التي يعطونها - زوراً وبهتاناً - عناوين الضعف والتخلف.

إن جانباً من رسالة هذه المجلة يهد ف إلى إيقاظ الهمم، ووضع الأمور موضعها الطبيعي، في محاولة جادة لدفع غائلة التغريب الذي حمل لواءه بعض أبناء جلدتنا، واستنقاذ من أصابهم الأذى من وهدة الانبهار بكل ما

يقوله أولئك الذين لم تجن أمتنا من طريقهم إلا الصَّابَ والعلقم. وإنما يكون ذلك بكشف الحقيقة دون لبس، كما تتحدث هي عن نفسها، وبتفتيح الأعين على الإسلام كما هو، وكما أراده الله للإنسانية عقيدة ومنهج حياة، ورفع به أمتنا إلى مقام الريادة قروناً متطاولة من الزمان، وهو قادر على ذلك دائماً إن هي استأنفت طريقها مجدداً.

ذلك أن الإسلام بربانيته كما أوحى الله به إلى نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فيه كل عوامل الخير، ومقومات الاستمرار والعطاء، وما تلك النكسات التي أصابت العالم المعرض عن الله قديماً وتصيبه حديثاً، إلا بعض الشواهد على أن هذا الدين هو الهدية الربانية التي كانت من رحمة الله بالإنسان، وأن الرسالة المحمدية هي المثابة التي لا غنى للإنسانية عن الفيئة إليها بعد متاهات الضياع وظلام النكسات.

وإذا كان الأمر كذلك: فمن أولى بهذه الأمة من يقظة جديدة تصلها بحبل تلك الرسالة المتين، ولقد يكون لزاماً بدل أن تندب حظها العاثر في عتب مرير على الأقدار، أن تتبين موقعها من هذا الإسلام، وأين هي مما منحها الله من ثروات معنوية ومادية، وما مكن لها من أسباب القوة والمنعة، كيما تضع ذلك على طريق التغيير المنهجي، والتخطيط المدروس في حياتها من أجل تحقيق الهدف الكبير، في بناء مجتمع تظلله هداية محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وعمريات ابن الخطاب.

ثم أين هي من سمات القوافل الخيِّرة التي عبَّدت سُبل الفلاح، ومن الصفات التي يتميز بها طلاب الآخرة في كل ما يأتون وما يدعون؟! بل أين

هي في سلوكها من مدلول العبودية الحقيقية لله؟! تلك العبودية التي تشمل ـ مع التوجه إلى الله بالعبادة وإقامة الشعائر ـ اعتقاد أن الحاكمية له سبحانه، والعمل على أن يكون ذلك واقع الحياة.

ولقد يكون من صواب القول والعمل، أن يذكر الرواد دائماً أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ترك هذه الأمة على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. والمتقلب في غمار الحياة بين طريقين: فإما أن يكون من طلاب الدنيا، الذي همهم التطواف حولها، ونشدان مطالبها ومشتهياتها.. وإما أن يكون من أبناء الآخرة المسارعين إلى مرضاة الله، السالكين صراطه السوي، لا يرضون به بدلاً، ولا يبغون عنه حولا، فهم يتحركون ونصب أعينهم قول الله جلَّت حكمته: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

ولتجدنَّ هؤلاء البررة يغدون ويروحون ـ في طلب الآخرة ـ وهم في ساحة الإيجابية والبناء والتفتح على كل ما هو خيِّر ونافع، وتراهم يقطعون أشواط الرحلة إلى الله واثقين راضين بأمره، مطمئنة قلوبهم بذكره يحملون صفات البشر، ويظللهم طهر الملائكة، وهم هم وحدهم الذين يصدق فيهم أنهم أمل الأمة المرتجى، وعدتها يوم يعزم الأمر ويجدُّ الجد ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

إنهم يتجاوزون مرمى الغاية عند أهل الدنيا، وينظرون ببصائرهم إلى

حيث منازل السابقين وأهل اليمين يوم يُنادى أصحاب الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، ذلك بما كسبتم فنعم عقبى الدار.

وإنها لتذكرة للمتقين تلك النهاية التي لا مفر منها، والتي هي غاية كل حي.. و«كفى بالموت واعظاً يا عمر»!! أرأيت إلى العدد الماضي من مجلة «حضارة الإسلام» كم كان فيه ما يهز النفس، ويستمطر الدمع، ويذكر بالآخرة، ويقف بالمؤمن على ساحة العبرة وحسن التأمل؛ ذلك ما كان من حديث أحبة كرام، وافتهم المنيّة راضين مرضيين إن شاء الله، عجلوا إلى ربهم ليرضى كل على الثغر الذي أقامه الله عليه، ولكل درجات مما عملوا.. ويا نعم ما نصنع حين تكون العَبرة طريق الاعتبار، والوقائع التي تدمع لها العين ويخشع لها القلب، سبيل متابعة الطريق.. طريق القافلة التي كان من رجالها هؤلاء الرواد.. والزهادة بعاجلة كل ما فيها سراب خادع لا يزن عند الله جناح بعوضة، ثم التدبر الصادق لقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

رحم الله أولئك الأحبة الأبرار رحمة واسعة، وأكرم مثواهم في الآخرين، وأعلى مقامهم عنده في الفردوس، وعوضنا بفقدهم خير العوض، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما عن مجلتنا في خاتمة سنتها الرابعة عشرة، وفي ظلال العام الجديد؛ فالله المسؤول أن يجعلها أقدر على أداء رسالتها بأمانة ووعي، وأن يثبتنا جميعاً على النهج السوي لا نساوم ولا نحيد.. وهو ـ جلَّ جلاله ـ المستعان

على كل حال. وجزى الله خير جزائه إخوتنا الكتَّاب والعاملين في حقل المجلة، وكلَّ من يسهم في أن تأخذ صفحاتها المباركة ـ إن شاء الله ـ طريقها إلى النور.

ولنا من وعي الأخ القارئ وسلامة تقديره لكل الأبعاد، ووضع ظروفها في الحسبان، وتعاونه المعنوي والمادي.. ما يحفزنا إلى مزيد من تفاؤل المؤمن الواثق بنصر الله وتأييده مهما طالت الطريق، واشتدت حلكة الليل.. ولكل أجل كتاب.

obeikandl.com

الرسالة والرسول(*)

ليس عجباً من العجب أن تكون بعثة رسولنا الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقوى وأوضح منعطف في تاريخ الإنسانية، نقلها من حال إلى حال، وبدَّل ما كان شبيهاً بالموت في حياتها، باليقظة التي أوجدت الإنسان الصالح للبناء، وفجرت طاقاته حتى اهتزت الأرض في دنيا الناس وربت وأنبتت ـ في ميادين الروح والقلب والفكر ـ من كل زوج بهيج.

ليس عجباً من العجب أن يكون الأمر كذلك، والرسالة التي جاء بها وحياً من عند ربه عز وجل، تحمل فيما تحمل عقيدة متوائمة مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، عقيدة هي من البساطة ذروتها، ومن العمق أدقه وأغلاه، تصل العبد بخالقه موحداً، وتحمله إلى ساحة الحرية الواعية حين تخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله، فكانت عنواناً لميلاده، بعد أن ضرب عليه الطغيان بالأسداد، وعانى ما عانى من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وبعد أن كبلته الخرافة والتقليد الأعمى ومجافاة العقل السليم بقيود جعلته كأنه ركام من هذا الركام المضروب عليه، فكان كل ما كرم الله به هذا المخلوق وفضله به على كثير ممن خلق، محجوباً بالسدود والقيود، حتى فتح الله فتحه، وأشرقت جنبات مكة وطيبة، وانحلت العقدة الكبرى، وخرج الإنسان الحبيس الرازح تحت الطغيان بشتى ألوانه ليستنشق عبير الحياة، ويبدأ

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة الخامسة عشرة، ربيع الأول ١٣٩٤هـ، نيسان ١٩٧٤م.

مسيرته الحضارية المؤمنة من جديد، بذلاً وعطاءً، وتفجر طاقات ومواهب زانه الله بها يوم تأذن سبحانه أن يجعله في الأرض خليفة.

وحملت الرسالة فيما حملت ـ شريعة تنبثق من تلك العقيدة فيها كل عناصر الإيجابية، والشمول والإنسانية والبعد عن الحرج، فهي قول وعمل ومواجهة لكل متطلبات الإنسان في الحياة، وهي لسعادة هذا الإنسان أياً كان في تخط لحدود الزمان والمكان والجنس واللون. هذا بجانب المنهج الخلقي، الذي ربط الأخلاق البريئة من النسبية والتلون ربطاً وثيقاً بالإيمان.

وبهذا كله وكثير من ملامح الإسلام: تحول التاريخ ليقول كلمة الخير بعد طول ضياع وشقاء، وطبعت أمتنا على وجهه سمة رسالتها الجديدة، التي كان من بعض جوانبها ذلك الاكتشاف الهائل لإنسانية الإنسان وذلك المد الحضاري الذي تلقت مدارس العصور الحديثة منه ما تلقت، وأخذت ما أخذت مع نكران الجميل.

وهذا الحديث في شهر ربيع الأول شهر مطلع النور في مولد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبعثته وهجرته يسوقنا إلى الحديث عن اليقظة المنشودة في عودة المسلمين إلى المورد الأصيل الذي به صنعت أمتنا تاريخها، وتربعت على عرش المعلم لأمم الأرض.

إنا لنبعد المرمى أكثر مما ينبغي حين نحسب أمر الإسلام اليوم ينحصر في كشف القناع لغير المسلمين عن حقيقته؛ فيكون همنا أن نقدم الأدلة والبراهين على أنه الدين الذي له كل مقومات الحياة.. وما إلى ذلك؛

والواقع أن هذا واحد من جوانب الموضوع في نظري، وربما كانت فائدته في مجال الأبحاث العلمية (الأكاديمية) كما يقولون، وهناك ترد تهمة، وتقرر حقيقة، ويكشف عن زيف، وتجلى واقعة من الوقائع مما يتطلبه الموضوع المطروح. فليقم بهذا أهل الاختصاص. وقد يكون ذلك من الواجبات الملحة في ساحة إبعاد أذى الأعداء وتشكيكهم أبناء الإسلام في إسلامهم بكل ما يملكون من حيلة ووسيلة.

غير أن جوهر المشكلة هو في هؤلاء المسلمين اليوم، هو فينا نحن الذين أصبحنا وكأننا بحاجة إلى (الأسلمة) من جديد.. لا أقول: أسلمة، قاصداً بها تكفير الناس، ولكن أقول: أسلمة تحمل على العمل، وإنجاز مقتضيات الإيمان.. بعيداً عن التأثير بما تسوله الشياطين، ثم تطويع السلوك نحو الأمثل والأفضل، على النهج الذي يمليه المنهج الرباني، وتلزم به عقيدة التوحيد، حيث الإيمان بالله رباً واحداً لا شريك له في العبادة والاستعانة، والحكم والعطاء، سبحانه، وحيث التصديق العملي بأن محمداً رسول الله الموحى إليه، المبلغ عن ربه رسالته، وأن طاعته من طاعة الله [**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**].

ولقد صنعت أمتنا التاريخ من قبل بمبادئ الإسلام والروح التي أضاء قبسها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم تكن حاجة الإنسانية وحدها يومذاك كافية للإبداع وصناعة التاريخ، لولا تلك المبادئ التي جاءت وحياً من عند الله عز وجل وهي الرسالة، ولولا تلك الروح التي لامست القلوب

والنفوس بما صنعه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرسول، حيث غير المفاهيم، ووضع سلماً جديداً للقيم، ورسم النظام لسعادة الدنيا والآخرة، وكان ملاك ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. نزل عليه الوحي، فكان هو الصورة لما دعا إليه الناس، وكان سلوكه التطبيق العملي لكل جوانب الرسالة التي ائتمنه الله على إبلاغها، وصدق في ذلك قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ «كان خلقه القرآن»، فكان الرباط بين الرسالة والرسول رباطاً كشف عن صدق هذا المنهج الرباني، وأنه صالح لواقع الإنسان كما خلقه الله، دون وقوف عند حدود الزمان والمكان..

ومن بعدُ فهو منهج لا يعيش على التجريد حبيس الأذهان والخيالات.. ولكنه منهج مهيأ لأن يعمل به البشر، ويحققوه في دنياهم كما خلقهم الله، بحاجاتهم وتطلعاتهم وأشواقهم وغرائزهم. ولم يكن تحقيقه بالأماني وطلب العافية، وإنما كان بالإيمان العميق والجهاد الصابر والعطاء الذي يستعصي على القيود، في إطار الالتزام الواعي، الذي لا ينقصه الرضا ولا يخضع لسلطان الغفلة.

ودليل ذلك؛ أنه كما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصورة المثلى والتطبيق العملي لرسالته ـ عليه الصلاة والسلام ـ استطاع في الوقت نفسه أن ينشئ المجتمع الإسلامي الذي تمارس فيه الحياة وشؤونها، وتنظم على صعيده أوضاع البشر وحاجاتهم هنا وهناك، وكان قوام ذلك تلك القاعدة الصلبة من أولئك الناس الذين خلقهم الله من لحم ودم، وحمل

إلينا التاريخ من أخبارهم في حالات الحرب والسلم والغنى والفقر ما لا يكاد يصدقه الغارقون في المخالفات، الوالغون في الإثم، المجافون للفطرة. وكانت طريقة النبي - صلى الله عليه وسلم - في إنشاء هذه القاعدة، تعليم أفرادها الإسلام، ثم تربيتهم عليه ساعة بعد ساعة، وتزكيتهم يوماً بعد يوم، وكان التمحيص جزءاً من المنهج ولبنة من أغلى لبنات البناء، ولقد كان - عليه الصلاة والسلام - قادراً على التربية بالأسوة الحسنة، كما كان قادراً عليها بالكلمة والتوجيه، وذلك ما يجب أن يسلكه الرواد والمصلحون اليوم.

وهكذا.. تبدو المشكلة، ومفتاح حلها بأيدينا - نحن المسلمين - من هذه الناحية. فالإسلام بمبادئه، والروح التي حركت أعماق الضمير الإنساني، فأنتج وأبدع وولد ما ولد من قيم حضارية في ظلال الإيمان.. وحمل العبء فيه، ومارس أحكامه ممارسة جدية واقعية في مختلف بقاع الأرض، وعلى مختلف الألوان والأجناس، بعد أن جاء بلسان عربي مبين رجال صدقوا واستقاموا.. الإسلام كما هو في مبادئه، وكما هو في واقعه التاريخي، وكما هو في الشحنة الحضارية عبر القرون.. والتراث الناطق بهذا الذي نقول.. إن الإسلام وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، والنعمة التي أنعم بها على العالمين، هو حجة الله على الناس عموماً وعلى هذه الأمة بخاصة.. أن تعود إليه، أن تستلهمه بناء الإنسان مجدداً.

ولقد يحلو لبعض المتحذلقين بعقولهم، المتنكرين للأمة وتراثها بأفكارهم.. أن يقولوا: هذه دعوة إلى الانقطاع عن الحياة.. والبعد عن

معطيات العصر الحديث، وإغماض العين عن كل ما تجود به حضارة القرن العشرين. من علم تقني ومنجزات.

ولسنا بسبيل أن نرد على هؤلاء في هذه العجالة من القول، لكننا نقول:

أولاً: إن الإسلام هو دين الحياة، بل هو الذي بنى الإنسان الذي يصلح لأداء رسالة الحياة على أساس الإيمان والبعد عن الميكيافيلية، وأن الغاية تسوِّغ الوسيلة! بحيث يستخدم العلم ليجعل الناس سادة وعبيداً! فأصحاب العلم التقني هم السادة وغيرهم عبيد. فعندنا إيمان وخلق وعلم وعمل ووسيلة نظيفة مشرقة لغاية مثلى في ظل طاعة الله الذي خلق الإنسان والكون، وأودع هذا الكون خصائصه وسخره للإنسان.

ثانياً: إن الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، وكانت من بناة أعظم حضارة في التاريخ، مهمتها اليوم أن تحافظ على أصالتها مع الإفادة من معطيات العصر الحديث، فحينما ندعو إلى منهج القرآن: فإنما ندعو إلى الذاتية والأصالة، بحيث نجمع بين الحفاظ على وجودنا وبين التجديد والتحديث، لكن التحديث ـ كما أشرت في كلمة سابقة ـ شيء، وضياع هوية الأمة والتنكر لأصالتها شيء آخر، على أنه لا بد من فهم الإسلام كما أنزله الله وكما هو في منابعه الأولى؛ بعيداً عما ينسب إليه الجاهلون أو الغافلون أو أعداؤه المبطلون.

إلا أن الذي تتطلع له قلوب المخلصين ـ وبوادر اليقظة واضحة والحمد لله ـ وتهفو لتحقيقه نفوس الرواد ومسؤوليتهم كبيرة أمام الله ثم التاريخ. . تلك

النقلة من وهدة التشكك إلى ميدان القناعة، ومن ضياع الانبهار بما عند الآخرين دون وعي ولا تمحيص.. إلى الفهم الواعي لما حولنا ولمن حولنا، إلى الإفادة من طاقتنا وقدراتنا ووضعها موضع البناء، إلى أن نأخذ ونعطي بيقظة ووعي والحياة أخذ وعطاء.. إلى العزة الإيمانية التي كانت السمة المميزة لأولئك الذين صنعوا تلك الأمجاد. وقبل ذلك وبعده ومعه.. نريد تلك النقلة من ظلام الجفوة والطواف حول النفوس والأهواء.. إلى نور الحب؛ حب الله ورسوله حباً يحرك أعماق الأعماق، ويسمو بالمسلم إلى ما هو أعز من متاع الدنيا، فهو سبحانه واهب الوجود والحياة، والأرزاق والآجال بيده سبحانه، وكل شيء دون مرضاته هباء.. إلى حيث نكون قادرين على استشعار ما يعنيه قول بعضهم وجراحاته تثغب دماً.. إنها الجنة إني لأجد ريحها دون أحد. وذلك بعض حلاوة الإيمان [**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**].

فلكم كسر الحب قيوداً، وأضاء ظلماتٍ، ولكم فك أسارى، وحطم حواجزَ، ولكم خرج بصاحبه من ضيق الشقاء إلى سعة الطمأنينة والسعادة. أو لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر أن يدعو بقوله: [**اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك واجعل حبك أحبّ إلي من الماء البارد**].

إن هذا الذي قد نسميه اليوم مدنية، وتأقلماً مع الحضارة الحديثة في السلوك، هو في بعض حالاته انقطاع عن الله وبعد عن رسوله ـ عليه الصلاة

والسلام.. والممارسة الحضارية الواعية إنما تكون في غير هذا الذي تجاوز القشرة إلى القلوب والنفوس. وإننا ونحن نذكر محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولاً هادياً وشفيعاً رحيماً، ونذكر رسالته نوراً مبيناً وهدى للعالمين.. ندعو أنفسنا وأمتنا إلى هذه النقلة في الفكر والعمل والسلوك وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله؛ فذلك برهان صدق الدعوى، وعنوان الإرادة، وإعلان الخطوة الحازمة لبناء أنفسنا وتاريخنا من جديد.

والله المسؤول أن يجعلنا من الذين قال فيهم: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾.

وصلى الله وسلم على نبي الهدى والرحمة كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.. والحمد لله رب العالمين.

كيما تجد الأمة ذاتها(*)

بين المد والجزر في واقع هذه الأمة وما يحيط بها من أحداث، وما يعج به وطننا الكبير من وقائع ومتغيرات... تبدو الصورة بملامحها العريضة موحية بأن الأمة تبحث في هذه المرحلة عن ذاتها.. ولكن أين تجد ذاتها؟ إنه السؤال المطروح على صعيد النظرة الجذرية التي تتجاوز السطح وتنظر إلى القضية بنوع من وضوح الرؤية، والتجرد عن المؤثرات الجانبية من هنا وهناك.

إن فارقاً واضحاً بين أمتنا وغيرها من الأمم في هذا المجال.. هو أننا لا ننطلق من فراغ.. ولا نبدأ مسيرتنا من الخيال.. ذلك أن لهذه الأمة عقيدة ألقت وجودها على الواقع التاريخي في حياة البشر؛ فكانت المبادئ وكان التطبيق، وبنت حضارة شهد بإنسانيتها وتكاملها المنصفون من شتى الأديان والأجناس، وحكمت بشريعتها قروناً متطاولة، أفضل ما يكون الحكم عدالة، وشورى، وحفاظاً على كرامة الإنسان.

ولعل ما يطرحه العدو دائماً من شعارات يجمع حولها يهود الأرض من خرافة أرض الميعاد، إلى الشعب المختار، إلى هيكل سليمان.. وما إلى هذه الشناشن.. لعل ذلك يثير فينا على الأقل - ورب ضارة نافعة - أن نذكر أننا في بحثنا عن الذات لا نعدم القواعد والمنطلقات في مدنا التاريخي الذي

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة الخامسة عشرة، ربيع الثاني ١٣٩٤هـ، أيار ١٩٧٤م.

نعمت الدنيا ببدء تحركه منذ أربعة عشر قرناً من عمر الدنيا، حين تأذن الله برسالة الهدى والخير، وأوحى إلى نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوحيه، وابتعثه في الأميين رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وأرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً. وعندما نكون صادقين في تلمس الطريق تحت مطارق الأحداث، وما يدق أبوابنا من إحن.. فإن ذلك يعني أن تراجع الأمة رصيدها من تجارب الجنوح عن تلك المنطلقات، وممارسات العقوق لتلك المبادئ، وتفيء بشجاعة المنصفين إلى تلك الواحة المحمدية التي ألَّفت بين القلوب بعد فرقة، وجمعت الكلمة على الحق بعد شتات، وهتفت بالأصالة والذاتية وحرية النظر، بعد الكهانة والخرافة وغبي التقليد، وجعلت من الدولة امتداداً طبيعياً لدوحة الدعوة المباركة الخيرة... فكان في إسلام الوجه لله، والرضا به المعبود الحق، والشارع الحكيم، والمدبر القادر: ما سلك بتلك الأمة سبيل السعادة في الدنيا والآخرة..

أجيال تلحق بها أجيال.. وكل يسلم الراية إلى من بعده برجولة وصدق عزيمة.. معارك بين الحق والباطل أضاءت جنبات التاريخ.. وأبطال في كل الميادين ـ ولا تستثن ـ عفّر جباههم السجود بين يدي الحي القيوم، فعفَّروا وجوه الظلمة بالتراب.. وكانت ألسنتهم رطبة بذكر الله فأرهبوا أعداء الإنسانية بكلمة «لا» في وجه الانحراف.. وخضعوا لله في كل شيء.. فمرَّغوا بالتأديب الحازم حياة الطواغيت. وكان أن انتصرت كلمة الحق،

وعرف الإنسان ذاته، وبدأ يعمل بحرية ونظام هادف، وفي وهج حرارة العقيدة وسلامة الفكر ملأ الدنيا بمعالم الحضارة، وأغناها بثمرات الإيجابية والبناء.. حتى هابتنا أمم الأرض.. وأصبحت لنا الكلمة المسموعة على الصعيد العالمي.

ولولا تلك العبودية الحقة لله، وإسلام الوجه له في التصور والعمل، لما تحرر الإنسان، ولما استطاع أن يعمل وينتج في إطار الإنسانية وسلامة القصد.. وإذا أردناه اليوم أن يكون، وأن يبذل، وأن يصحو بعد سبات، فيهز ميادين الحياة على تلونها وتنوعها فلابد من تلك الفيئة التي أشرنا إليها في مطلع الحديث.. تماماً كالذي فعلته يمنى محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، حين عني أشد العناية بصياغة الفرد والجماعة.. بعيداً عن التمزق والضياع، وكل ما عاناه الإنسان في ظلام الجاهليات قبل الإسلام.. فعل ذلك رسول الله بالكلمة، والقدوة، والنهج.. ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾.

ولعلك تستبين سلامة الصنيع أكثر وأكثر حين تسمح لنفسك بشيء من المقارنة التي نادى بها القرآن الكريم ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا**﴾.

وإذا كان التاريخ سلسلة متكاملة الحلقات، فمن غير المقبول أن نقطع واحدة من هذه الحلقات عن الأخرى، خصوصاً أن تاريخنا يحمل في منطلقاته على المدى طبيعة الصراع بين الحق والباطل، والجانب التطبيقي

لدعوة الإسلام . . وإذا توافر لنا وضوح الرؤية ، والنظرة الجادة المتكاملة التي تربط بين العقيدة والاستجابة لمقتضياتها في عالم الواقع كي تعطي وتغني . .

فلله هذه الأمة كم مرت بها من تجارب ، وكم دبر لها أعداؤها من مكائد . . وذلك ما اقتضته طبيعة الصراع بين الحق الذي تدعو إليه والباطل الذي يحمل لواءه الآخرون . . لكنها - كما تنطق الوقائع - كانت تخرج ظافرة بحمد الله . . وذلك حين تأنس إلى منطلقاتها الأولى ، وتجتمع بعد الشتت ، على كلمة الله في ميادين المعرفة والجهاد مجدداً . . ولنا في معاركنا مع التتار والصليبيين - ناهيك عن المعارك الأخرى في القديم والحديث - دروس لا ينساها إلا من ضرب الران على قلبه ، وعشيت عن الحقيقة عيناه ، وحال الهوى دونه ودون التجرد في الحكم!

غير أنه . . لا مندوحة عن تصور المشكلة من جميع جوانبها ، وأن أبناء الأمة عنصر فعال وأساسي في حلها تجد هذه الأمة ذاتها . بعد أن تداعى عليها أهل الباطل وظاهروا على حربها وتمزيقها . وإلى جانب ذلك . . لهم من قوة الإسلام وطبيعته . . عقيدة ومبادئ أثبتت وجودها في جميع أدوار التاريخ . . سواء حملتها الأمة في حالات القوة . . أو كانت هي الدرع الواقي في حالات الضعف ، وستظل تلك المبادئ بربانيتها تفرض نفسها على الساحة بالنسبة للمؤمنين بها ومعتنقيها والعاملين على نشرها وإبلاغها للناس .

وما بعض المؤتمرات التي تعقد في العالم الإسلامي - سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي - إلا ظاهرة هذا الذي نقول . . ودلالة ذلك ناطقة في حالة

إخراج مقررات المؤتمر إلى حيز التنفيذ لو تسنى لها أن تخرج . . أو بقاء المؤتمر ساحة للحوار بين المؤتمرين أنفسهم حين يحمل كل واحد منهم مشاعر وأحاسيس من يمثلهم . . وتتضح الصورة التي يلتقي عندها الجميع مع اختلاف الجزئيات التي تفرضها ظروف بلد معين وأوضاعه الخاصة . . وعلى أية حال . . يمكن القول أيضاً : بأن تطلع الأمة على اختلاف البقاع والألسنة والألوان للإسلام منتجعاً أصيلاً لحل مشكلاتها بوعي ودقة ظاهرة طبيعية أيضاً لها دلالتها المتفائلة بالنسبة إلى واقع الأمة . . وقد بدا ذلك واضحاً في مؤتمر مكة المكرمة . . إذ رأيت عجباً من مظاهر الوعي وسلامة التطلع لهذا الحصن الحصين خصوصاً من الإخوة المسلمين غير الناطقين بالضاد . .

ومهما يكن من أمر : فالأمر وراء المؤتمرات ـ وبخاصة الرسمية منها ـ دالٌ على أن الشعارات التي تنادي بالعودة إلى الحكم الإسلامي ، وأن تكون كلمة الله هي العليا في كل تصرف : قد رجعت إلى محاضنها الأهلية في الشعوب الإسلامية ، ولم تعد القضية منحصرة في جماعة خاصة أو فئة معينة كما يحلو لأعداء الإسلام أن يقولوا وهم لا يفقهون ! !

وبعد هذا ، لابد من العزيمة . . ولابد من الثمن . . ونصر الله كائن لا محالة . . فذلك وعده جل وعلا . . ووعده الحق .

وعلى الذين يحسبون نصر الأمة منوطاً بعنوانها دون الجهاد والصبر ، ودون الوقفات الإيمانية المستعلية ، واسترخاص الأرواح والأموال في سبيل الله . . على هؤلاء أن يذكروا ـ وبقليل من الإغضاء ـ أن المنهج القرآني لم يدعُ إلى العمل فحسب . . بل ذكَّر المؤمنين بأن من سمات المجاهد أن يضع

نصب عينيه طبيعة المعركة التي يخوضها، وأن ما سوف يناله وهو يجاهد أمر طبيعي ولكن العاقبة له عند الله.. بل إن ما يناله من الأذى قدر مشترك بينه وبين أعدائه.. وفارق ما بينه وبينهم ـ مع اختلاف الغاية ـ أن الذي له عند الله غير الذي لهم.. نقرأ في ذلك على سبيل المثال قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾، أوَلا ترى أية قضية ظالمة طاغوتية يقاتل في سبيلها اليهود وأعوانهم اليوم، فضلاً عن غيرهم في أرجاء وطننا الكبير.. وفي توجيه قرآني يبين الفارق في المآل.. ويضع في ذلك الحد الأمثل لكيلا نضعف عن المقارعة، أو يعصف بنا الانهزام النفسي: نقرأ هذه الكلمات المضيئة.. الآمرة الناهية المربية ﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾.

﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وثبتنا على الحق الذي نزل به الكتاب، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين.

من قواعد البناء (*)

ليس من شأن أمتنا ـ وهي صاحبة أكرم رسالة أن تهمل ـ عبر التفاؤل أو التشاؤم ـ ما هو من الأوليات في بنيتها العامة بوصفها ذات رسالة . . كما أنه من القواعد التي قام عليها البناء في مجتمع المدينة الذي صنعه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وواجه به القديم الموروث، والتحديات الإقليمية والعالمية . . ذلك المجتمع الذي قدر على المواجهة؛ لأنه كان في قيادته وحركته في ميدان الممارسة لشؤون الحياة، مجتمع أصحاب الرسالة الذين بدأوا مع التاريخ رحلة جديدة، ووضعوا بصماتهم على تلك الحياة يطبعونها بطابع الإنسانية والخير.

نعم . . ليس من شأن هذه الأمة أن تهمل فضلاً عن أن تجفو تلك الأوليات، وتلك القواعد التي تبرز ذلك التكامل بين طبيعة الرسالة، وبين ما يجب أن يكون عليه المجتمع الذي يراد له أن يكون الصورة الناطقة لمبادئها ودعوتها . . لأن كل الشُّعب تلتقي من بعد على رباط العقيدة التي منها ينبثق النظام . . وعلى هداها يضع المجتمع بأفراده وجماعته القدم بثبات ورسوخ على طريق الدعوة والتطبيق.

وإن من هذه القواعد ما حملته إلينا سورة العصر ـ وهي من جوامع الكَلِم ـ بآياتها الثلاث . . حيث قلت الكلمات . . وغزرت المعاني . . فكانت تلك السورة الصغيرة بحجمها ـ وكل ما في القرآن عظيم ـ غنية بالعطاء غناء يشدنا

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة الخامسة عشرة، جمادى الأولى ١٣٩٤هـ، حزيران ١٩٧٤م.

إلى أن نذكر بقلوب وجلة قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. إنها للسورة التي يستظهرها الجميع لكن الذي يبدو ضرورة ملحة ـ والأمة على عتبة يقظة جديدة ـ أن تتحول الكلمات من الذاكرة إلى التذكر.. فتدخل المعاني حياة الأمة من أوسع الأبواب.. فاعلة مؤثرة.. تستل من النفوس ضعفها وانهزامها.. وتشيع في أرجائها القوة والطمأنينة.. بحيث يتقاصر ما يكون من تقلبات الدهر.. وتمالؤ أهل الضلال.. وما يهب علينا من الوافد الدخيل.. دون أن يحقق أغراضه في تنحيتنا عن الطريق.. وتصديق أكذوبة أننا لسنا علىٰ شيء إن لم نفكر بعقول الآخرين.

وإنك تجد أن السورة تقدم التعريف الكامل لأهل الربح عند الله عز وجل وأن ما عداهم هم أهل الخسار.. فقد أقسم الله تعالى بالعصر، وثنَّى على ذلك بتأكيدين أن الإنسان في خسر يشتمله ويحيط به.. إلا أن يعي أمره ويسلك السبيل الراشدة. وإنه لتحديد يتخطى حدود الزمان والمكان.. فأهل الربح هم الذين يتحركون ضمن حدود تلك المعالم التي رسمتها السورة المباركة، ومن عداهم محاط به واقع في حمأة الضياع والهلاك. وهذه هي القضية الكبرى التي من مشتملاتها بعض قواعد البناء في أبجدياتها وأولياتها.. الإنسان.. الإيمان.. العمل الصالح.. التواصي

بالحق . . التواصي بالصبر . . إنها المعالم التي تحمل القدرة على استمرار الإنسان الذي حظي بتكريم الله، في أن يكون خليفة في الأرض . . وعلى تأهيله أن يعمل وينتج وينتصر على التحديات التي تواجه الحق . . ثم أن يضع ثمرات ذلك على طريق أخيه الإنسان . . كي تكون روافد للنهر الكبير في طول التاريخ وعرضه .

وإنسانية الإنسان . . في فطرته . . في عقله وقلبه . . في طاقاته ومشاعره . . وكل مقوماته . . بشمول وتوازن . . إنما تتحقق بالإيمان . . الإيمان بكل أبعاده ومراميه ومقتضياته . إيمان بالله الواحد القادر . . الذي له الخلق والأمر، وبيده الرزق والأجل . . وإيمان بالملائكة عباده المكرمين، وسفرائه إلى رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . . وبالكتب التي أنزلها على صفوة خلقه المرسلين، تحمل الهداية للناس . . وآخرها القرآن الكريم الذي حفظه الله من جناية التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وإيمان بالرسل الذين بلغوا عن الله ما أراد، وكان سيدهم وخاتمهم محمد ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ، وإيمان باليوم الآخر . . يوم القسطاس المستقيم، حيث يجزي الناس بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر . . ويتحقق العدل المطلق ولا تظلم نفس شيئاً . . ومن أجل هذا كاد الإيمان باليوم الآخر أن يكون ضرورة عقلية بجانب الخبر الصادق عن وقوعه . . ثم إيمان بالقدر . . فالله الخالق المدبر أقام لملكوته نظاماً، وهو يتصرف بملكه وفق هذا النظام الذي شاءه . . والمؤمن يعمل . . ويعمل، ويفوض الأمر إلى الله، ويرضى ـ من بعد ـ بقضاء الله وقدره . . وذلك منتهى الإيجابية، وفسح المجال أمام الإنسان ليتعايش مع الكون والحياة على أفضل وجه وأكمله .

وليكون هذا الإيمان نافعاً لا بد أن يزينه العمل الصالح، لأنه ثمرة الإيمان. ولعل من الضرورة بمكان.. أن يفهم ذلك في ضوء المنهج الرباني الذي هو منهج كامل للحياة.. وإذن فلزامٌ أن يكون العمل الصالح سمة التحرك في جميع الميادين كما يرسمه الإسلام؛ لأن ذلك التزام بما وضعه خالق الحياة.. وإلا رغمت أنوفنا بالتناقض، وسقطنا في حمأة الضياع.. إنه العمل.. وإنه صالح العمل.. لا يقتصر على المسجد.. وإنما المسجد ميدانه الأول ورمز ارتباط الحركة بعقيدة التوحيد.. ويتابع المؤمن مسيرته بالعمل الصالح حيثما كان.. وأينما توجه.. وفي أي حقل من حقول تخصصه وما يزاول من مهمات.. ولعلنا لا نتهم بالتنطع ـ بعد التذكير بأركان الإيمان ـ إذا ذكرنا هنا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**] فالأرض كلها مسجد وطهور.. وإذاً فالعمل الصالح ليس حبيس ذلك المسجد.. مقصوراً عليه وكفى.

فبجانب ما يعطي الحديث من اليسر في أمر العبادة وإيضاح أن صلة العبد بربه لا تخضع ـ كما هو الأمر عند غيرنا ـ لطقوس وشكليات يذكِّر المؤمن ـ والله أعلم ـ أن كلمة الله يجب أن تتحقق على كل أرض؛ لأنها خلق من خلقه وهو سبحانه الخالق والمعبود.

ومن هنا اتسعت دائرة العمل الصالح وزمره وميادينه؛ خذ مثلاً بعض ما ورد في سورة التوبة بهذا الشأن لترى أي مرامي بعيدة يرمي إليها القرآن في

صراع الحق مع الباطل والكفر مع الإيمان . . وكيف أن العمل الصالح يتناول حتى أبسط الأمور عندما يكون مراداً بها وجه الله والعمل على إعلاء كلمته . . دلالة أن القضية الكبرى يجب أن تملك على المؤمن زمام نفسه وتصرفاته، وأن تحظى بالمرتبة الأولى من اهتماماته .

ذلكم قوله جل وعلا : ﴿ **مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ .

وإذا كانت مميزات الإنسان البعيد عن الخسر إيماناً وعملاً صالحاً بهذه الآماد التي ألمحنا إليها، فإنه لن يستطيع أداء رسالته في الحياة فريداً، بل لا بد أن يتعاون مع أخيه الإنسان . . والرحلة شاقة وطويلة . . والعمل الصالح بعد الإيمان يحتاج إلى عزمات الرجال . . وإذاً فلا بد من التواصي بين المؤمنين، حيث تعلن الجماعة المسلمة إعلانها بكيانها المتميز ووجهتها الموحدة . . التواصي بالحق الذي هو عنوان رسالة الإنسان كما أرادها الله . . والتواصي بالصبر على تحمل تبعات الحق، في أن يكون واضحاً، في أن يأخذ طريقه في الوجود، في أن يقتحم معاقل السوء والباطل . . في أن ينتصر في ميادين الصراع . . الصراع مع النفس ومع أعداء الحق في كل زمان . . وبمقدار سلامة تصورنا للحق الذي هو عنوان رسالة هذه الأمة التي

ابتعث الله بها نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، نكون قادرين على محاسبة أنفسنا لحملها بشجاعة إلى حيث تعاون المؤمن مع أخيه المؤمن، ضرورة القدرة على حمل العبء، وإلى حيث استشعار الواجب في أن يتبادل المؤمن معه الوصية والتذكير على طريق الرحلة الشاقة الطويلة إلى الجنة. . فالتواصي بالحق باعث لليقظة. . ومبعد عن التلفت والاسترخاء عند الرغب والمغريات. . ومثبت أمين عندما تعوي الذئاب في وجوه الرواد. . وتنبت تحت أقدامهم نابتة الشوك، وتتلوى على منعطفات الطريق أفاعي الإنذار والترهيب. . صورة للطغيان والظلم حين تواجه الحجة بالسياط. . ويستبدل السياط بالفكر. . ويستعاض عن الحوار بإزهاق الروح. . وانظر كم وضع اليهود وأعوانهم على وقع أقدامنا عبر التاريخ؟ وكم يضعون اليوم من الأذى. . تسلمه إلى أجيالنا عناوين الخداع والبريق. . وكم هي حالقة فتنة أن نغفل عن الأذى أو نستكين للظلم. . أو يعشي أبصارنا الزخرف، فنخدع عن مسارب الفتنة وأسباب الوهن.

ألا إن هذا كله قمين بأن يكون معه في ظلال المنهج الرباني. . التواصي بالصبر. . والصبر. . هذه الكلمة التي كانت قطرات الندى على صفحات القرآن الكريم ـ وكل القرآن عطر وندى وخير وهدى ـ هذه الكلمة بأحرفها الثلاثة ومدلولها الحقيقي هي من بنية الرواد العقلية والقلبية في موضع الضرورة. . ضرورة الهواء للإنسان. . وإلا خانتهم العزيمة، وسقطوا على منعطفات الدروب عند أول بادرة من بوادر الامتحان. . فالتواصي بالصبر يرتفع بالجماعة إلى حيث تتضاعف مقدرتها على المواجهة. . بما يذكر بالله

الذي بيده الآجال والأرزاق.. وبما يثير في النفوس الإحساس الدائم الصادق بوحدة الهدف وسلامة الوجهة.. ولا تسل عما يكون وراء ذلك من العزم وحازم الإرادة.. واستعذاب الصعاب.. والمؤمن المؤمن.. قوي بأخيه.. من أجل هذا - وهو قليل من كثير - قال الله جلت حكمته: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

لذا فقد يكون الصبر المطلوب أحياناً صبراً على مسؤولية التغيير إلى ما هو الأفضل، وليس صبر الذلة والخنوع، ذاك الذي عناه الشاعر بقوله:

ولا يقيم على ضيم يـــراد بـه ... إلا الأذلان غير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشـجُّ فلا يرثي له أحـد

إنا ونحن نستلهم بعضاً من معاني سورة العصر المباركة.. نقع على قواعد البناء الأولي التي بنت يد النبوة الإنسان المسلم في ظلها.. ذلك أن تلك الآيات الثلاث قد كشفت عن الفيصل الحق بين العماية والضلالة، وميزت بين الربح والخسارة.. فرسمت معالم الطريق.. وشدت الإنسان إلى أخيه الإنسان.. وأوضحت - بما لا وكْسَ فيه ولا شطط - أن العقيدة هي النسب الأصيل بين أبنائها حين قالت: آمنوا. وعملوا.. وتواصوا، بصيغة الجمع.. بعد أن ذكرت الإنسان، الجنس، بصيغة المفرد في مطلعها، كما أدخلت المسلم في طور الإيجابية والبناء حين قرنت بين الإيمان والعمل الصالح وأن هذا العمل هو برهان ذلك الإيمان.. وعلى الرواد أن يذكروا دائماً وهم يحملون رسالة أمتهم في إنقاذ البشرية من عماية الضلالة، وإبعاد

الإنسان عن مزالق الضياع والخسار بادئين بما يجب البدء به في هذا الميدان . . عليهم أن يذكروا هذه السمة الجماعية التي أرادت السورة أن تطبع بها عمل المؤمنين . . حيث الوحدة في العقيدة والهدف ، وصحة الانتساب إلى منهج الله ، وتحكيم مقاييس هذا المنهج في القيم ، والحكم بالربح أو الخسار في كل عصر ومصر . . ما يباعد أهل العقيدة عن التمزق والانفصام .

كما عليهم أن يذكروا أن سورة العصر قد فتحت الأبصار والبصائر على أن التواصي بالحق والتواصي بالصبر ـ مسبوقين بالإيمان والعمل الصالح ـ هما صمام الأمان الذي يدفع الأخطار ، ويقي ـ بمعونة الله ـ أهل العقيدة مزالق الانحراف في التصور والسلوك . . ولا أدلَّ على ذلك من قول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ «لو عمل الناس بهذه السورة لَوَسِعَتْهم» ، وإذا كانت هذه السورة تحمل كل هذا الثقل على طريق أصحاب الرسالة أينما كانوا وفي أي عصر وجدوا ، لم يكن بدعاً أن يكون الرواد الأول معها بالمشاعر والعمل ، حتى روي في الصحيح «أن الرجلين من أصحاب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانا إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر» . أرأيت إلى هذا الموثق الإلهي على الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر . . إنها قواعد البناء التي لابد من تمثلها وإعطائها مواقعها الطبيعية من الحركة والتأثير والفاعلية . .

والله المسؤول أن ينزل السكينة . . ويربط على القلوب . . ويثبت الأقدام . . إنه نعم المولى ونعم النصير ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

من المنهج النبوي (*)

تبليغ ... وتزكية

كانت حلقة واضحة من حلقات المنهج النبوي في الدعوة إلى الله، أن رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يبلغ رسالة ربه بكل أمانة ووضوح، وفي الوقت نفسه يعمل جاهداً على إعداد أولئك الذين يبلغهم إعداداً يكفل تحمل تبعات الدعوة، وحراسة أفكارها ومقتضياتها في النفس وفي العالم الخارجي بوعي وإخلاص. فلم يكن الاهتمام مقصوراً على التبليغ اللساني فحسب، ولكن كان يتعدى ذلك إلى التربية الفذة التي قدمت للبشرية نماذج فريدة تمثلت في جيل قرآني حوَّل المبادئ إلى حركة تسعد الإنسان وتحيي موات القلوب، وتبني الحضارة على أفضل الأسس وأقواها.

ولم يكن بدعاً بعد ذلك أن تكون سمة القاعدة التي بناها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحملت على كواهلها المجتمع الإسلامي الأمثل، سلامة التصور دائماً وسلامة التطبيق. وإنك تجد في الفرد ـ وهو لبنة الجماعة الأولى ـ صورة حية لتلك الدعوة بآفاق فكرها، وميادين عملها، وواقعيتها في التطبيق والالتزام. ولم يكن ميدان ذلك الرجال فحسب، وإنما كان ميدانه الرجال والنساء على حد سواء، كل على الشكل الذي أهله الله له، وما يكون في مقدوره حسب التكوين، من تحمل عبء الرسالة والتزام أحكامها.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة الخامسة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ، تموز ١٩٧٤م.

وإذا كانت سيرة الرسول ـ صلوات الله عليه ـ في تبليغ الدعوة وتربية الجيل الذي يحملها حافلة بالشواهد والأمثلة لما نقول، فإن تلك الطريقة كانت تأخذ أبعادها في ظل المنهج القرآني الذي ابتعث الله محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ به، وائتمنه على بناء أمة تكون بالإسلام خير أمة أخرجت للناس.

وبذلك تميزت هذه الدعوة المحمدية عن كل ما عرف العالم من اتجاهات وفلسفات تظل أفكار أصحابها حبراً على الورق، أو تموت حبيسة أذهانهم لا تجد صورتها الحية الواقعية على الأرض.

وعلى مدى التاريخ.. إنك تجد من الظواهر المرَضية في جسم العالم الإسلامي انحسار هذه التربية عن مبادئ الإسلام علماً وعملاً، واقتصار ذلك على تلقين المعرفة دون أن تأخذ هذه المعرفة طريقها إلى أن يكون الإسلام وجوداً حياً يعطي ويملي ويحكم، آخذاً بزمام المجتمع في كل ميادين البناء والتنظيم.

ولسوف ينظر التاريخ غير المزوّر نظرة إكبار وتقدير إلى كل أولئك الذين تتسم نظرتهم بالشمول والربانية، فيدعون إلى الله، ويربون من يدعونهم على التزام أحكام الدعوة، عقيدة وعملاً وجهاداً في كل منطلقات الفكر والسلوك.. ولسوف يذكر أيضاً أن أعداء الإسلام لا تداخلهم رهبة كرهبة أن يستأنف المسلمون هذه الطريق، ويكرم الله الأمة بمن يحملون الدعوة ويعملون على صياغة الجيل عليها صنيع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ وأنه من أجل ذلك يظاهر أعداء هذه الأمة ـ على اختلاف العناوين ـ على

حرب هذا المنهج وأهله، وإعطائه تعريفات وعناوين ما أنزل الله بها من سلطان، فتسمع من ذلك وترى العجب العجاب. . وتكاد تضحك من بلايا القرن العشرين، وشر البليَّة ما يُضحك.

إننا إذ نلحُّ على التذكير بهذه الحلقة من المنهج النبوي الذي كان الترجمان العملي لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. فإنما ذلك لأن حاجتنا إليها اليوم في يقظة الأمة، وتبصيرها بالإسلام، حاجة ملحة تتعلق في نظرنا بالأمور المصيرية لهذه الأمة، فالصراع الذي تعانيه أجيالنا بين الأخذ بالإسلام، أو التصفيق ببله لكل ما ينبو عنه ويجفوه. . هذا الصراع لا ينهيه إلا الأخذ بما كان من المنهج النبوي في الدعوة إلى الله. يوم آتى ذلك المنهج ثمراته الطيبة عبر قرون متطاولة، وفي مواجهة تحديات فكرية وعملية على كل صعيد، بل يمكن القول بأن كثيراً مما هو بالخوارق أشبه، في تاريخنا من حاكم يعدل، وبطل يستشهد، وأم تضحي، وعالم يجهر بكلمة الحق، وإنسان يقول إذا سيم الخسف: «لا». بملء فيه؛ إنما كان مرده تلك الصياغة للفكر الذي تفتح له القلب، وقنع به العقل، فأصبح صاحبه في عمله وجهاده والتزامه بما أمر الله وكأنه هو الفكر نفسه والعقيدة ذاتها.

أو لم يكشف القرآن ـ على الصعيد العام ـ عن زيف أولئك الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، وشبههم بذلك الحيوان الأعجم الذي يحمل أسفاراً. . تذكيراً لهذه الأمة أن لا تقع في ما وقعت فيه يهود من جعل الكتاب

المنزل كلمات تتردد على الألسنة فحسب، وكم هو مروِّع بالغ الإنذار قوله تعالى بعد هذا التذكير: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

ولقد يكون من الخير أن نؤكد بجزم: أن من ثمرات تربية الجيل على ما ندعوه إليه وتزكيته التزكية المطلوبة: أنه بالإضافة إلى تحقيق ذاته وإبراز الوجود الحي للإسلام في فكره وعمله وسلوكه؛ تتكون عنده الملكة التي بها يزن الأمور بالقسطاس المستقيم، ويعطي الأحداث والوقائع قيمها الحقيقية لا المزوّرة، ويدرك بحسِّه الإيماني والعملي، وتفتحه المرتبط بقيمه وموازينه، حقيقة ما يجري من حوله هنا وهناك، فهو ابن الحياة الذي يحمل رسالة الحياة التي هي رسالة الخير والحق وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وكل أولئك مراعىً فيه مراقبة الله عزوجل.

وعلى الرواد أن يكونوا على يقين بما عند الله، وأن يعلموا أن الإيمان والابتلاء في سبيل الله توأمان، ومن الغفلة الغافلة أن يكون في حسبانهم غير هذا، وإنما عليهم العمل المخلص والصبر. ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

أما أولئك الذين لم يذوقوا للإيمان طعماً، وراحوا يتمرغون على فراش الغفلة والمهانة، مولين ظهورهم لدعوة الخير، من ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. فحسبك من شأنهم قول الله جلت قدرته: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

وإنه لمما يثلج الصدر ويبعث على الطمأنينة بوعد الله دائماً؛ ما ترى من مظاهر الوعي عند الأمة التي يجب أن تذكر في صراعها الطويل مع الأعداء، وما يكلفها ذلك من تضحيات، قولَ الله تباركت أسماؤه: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وجزى الله عنا نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة ـ تعليماً وتربية وتزكية ـ وجاهد في الله حتى أتاه اليقين: خير ما جزى نبياً عن أمته، وصلى الله عليه وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان، وسلَّم تسليماً كثيراً.

obeikandl.com